مقاهي القدس في العهد العثماني

بشير بركات*

هناك عدد من المساهمات التي أدخلها العرب في الحياة العصرية، التي عُرفت وسجّلت باسمهم، كالأعداد العربية وإضافتهم الصفر؛ واختراع الصابون والسكر؛ وتطوير صناعة الورق؛ وغير ذلك. لكن قلة قليلة من مستهلكي القهوة في مختلف أرجاء المعمورة تعلم أن شربها اختراع عربي أيضاً، فقد ابتُدع شربها باليمن في أواخر القرن التاسع الهجري، وسرعان ما نُقل إلى الشرق العربي وإلى أوروبا، حتى أصبح ذلك الشراب الساخن جزءاً من الممارسات اليومية لدى مختلف الأجناس البشرية.

ففي دمشق، في النصف الأول من القرن السادس عشرشاع شرب القهوة في «بيوت القهوة»، وتأسس أول بيت للقهوة في استانبول سنة ١٥٥٤. وقد وصف الطبيب الألماني ليونهارت راوڤولف القهوة بعد زيارته استانبول والقدس في العامين ١٥٧٣ و١٥٧٥بأنها: «مشروب جيد جداً، ولونه أسود كالحبر تقريباً، وهو جيد جداً للأمراض، وخصوصاً مرض المعدة، وهم يشربونه في الصباح الباكر في الهواء الطلق أمام الجميع، من دون أي وجل أو اعتبار لأحد، بأكواب فخارية أو صينية، وبأعلى حرارة ممكنة، حيث يرشفونه رويداً رويداً.»

نُقلت فكرة إنشاء المقاهي إلى البندقية سنة ١٦٢٤، وبعدها بعام إلى روما، ثم إلى مرسيليا سنة ١٦٥٤، ثم إلى لندن، حيث أسس التاجر إدواردز بيت قهوة سنة ١٦٧٢، وأطلق عليه Coffee House، وهو ترجمة حرفية لبيت القهوة العربي، ويقوم في موقعه حالياً مقهى فيرجينيا. ويشار إلى أن المقاهي أدت دوراً في إرساء دعائم النهضة الفكرية والسياسية الحديثة في أوروبا.

وصول القهوة إلى القدس

انتشر شرب القهوة في القدس أواسط القرن العاشر الهجري، السادس عشرالميلادي، حيث انتقل إليها من الشام والحجاز ومصر، ولعله تمّ على أيدي أبناء العائلات التي استقرت في القدس بعد التعميرات الهائلة التي أحدثها السلطان سليمان القانوني في المدينة؛ إذ عُثر على أسماء عشرة أشخاص من الشام واثنين من مكة وواحد من اليمن وواحد من مصر، كانوا قد مارسوا صناعة القهوة في القدس خلال القرن المذكور، وكان أول صانعي القهوة في القدس يدعى أحمد بن أحمدالقهوجي، حسبما ورد في سجلات المحكمة الشرعية.

تأرجح شرب القهوة في البداية بين التحليل والتحريم، وبلغ التحريم إلى درجة ملاحقة صانعيها، كما في سنة ١٥٦٦ م، فقد ورد أن القهوجي الأوستة محمد بن الحاج يحيى الحلبي حلف بـ»الطلاق بالثلاث» من زوجته المدعوّة كافية المرأة ابنة شرف بن علي الصلاحي أن لا يصنع قهوة بالقدس الشريف؛ «وفي العام الذي يليه صدر أمر من السلطان العثماني إلى قاضي القدس، عبد الكريم أفندي، بمنع تعاطي القهوة بالقدس، لكن بعض المواطنين تجاوزوا المنع بواسطة الرشوة، وقد حدث أن بلغ القاضي «أن خليل بن إبراهيم بن مشيمش يتعاطى طبخ القهوة ويجمع عنده جماعة بدكانه بالقدس الشريف بخان الفحم، ويجتمع عنده المغنّيون والملهون وضارب الدف والرباب، ويتعاطون شربها على طريق شاربي الخمر، فمنعه القاضي من طبخها. لكن، ورغم ذلك، فقد انتشر شرب القهوة في مختلف المجالس، كما اعتاد أصحاب العمل تقديمها لعمال البناء كما في عصرنا الحاضر، ومن الأمثلة على ذلك قائمة المصروفات التي أنفقت على تعمير دار بقنطرة الشواين سنة ١٦١١ م، إذ شملت «كعك وقهوة» قُدما للفُعول(أي العمال)، وقائمة أخرى على تعمير طاحونة محمد باشا أبو الفول سنة١٧٩٤ م، شملت «ثمن قهوة للعَمَلة».

كما وأصبحت القهوة تشكل جزءاً من مراسيم العزاء في القدس منذ القرن السابع عشر الميلادي، ففي عزاء محمد بن كمال الرملي المتوفى بالقدس سنة ١٦٦٦ م، شملت مصروفات عزائه ثمن «غداء وقهوة»؛ وفي عزاء عيسى بن محمد أبو كعكة سنة ١٨٢٤ م، قُدمت القهوة إلى جانب «سدر كنافة».

وكان من عادة أهل القدس أيضاً أنه إذا زارها شخص مهم أن يقوم المضيف بسَكْبُ إبريق قهوة على الأرض أمامه ترحيباً به، كما فعل متري مستكلب، عندما زار الأمير

* مدير دار إسعاف النشاشيبي للثقافة والفنون والآداب بالقدس.

جلسة شرب القهوة

فردريك الألماني القدس لافتتاح مبنى الأوغستا فيكتوريا سنة ١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠ م.

مقاهي القدس

يلاحظ أن بعض مقاهي القدس كان يقوم بدور النوادي الثقافية، حيث أسّسها بعض أعيان المدينة وارتادها بعض الأكابر، ومنها قهوة الشيخ أبو الوفا العلمي، وقهوة حسين باشا، محافظ غزة. كما شكّل أصحاب المقاهي والعاملين بها في القدس نقابة خاصة كغيرهم من أصحاب المهن والحرف، وكانوا ينتخبون نقيباً أو شيخاً عليهم، يترتب عليه تقديم كمية من القهوة لكبار المسؤولين في المدينة، علاوة على الضرائب المعتادة، وكان يجري تسجيل اسمه في المحكمة، حيث ورد اسم صلاح الدين درويش القهوتي، كشيخ مُنتخب على طائفة القهوتية بالقدس الشريف سنة ١٥٩٠ م. وقد حصلت بعض المقاهي على إعفاء من دفع الضرائب بناءً على أوامر سلطانية، ومنها مقهى الشيخ أبو الوفا العلمي بحجة أنه كان ينفق ريعه على مريديه والمقيمين في زاويته، فلما طالبه شيخ القهوجية وأهل العرف بدفع تكاليف عرفية سنة ١٦٥٥ م منعهم قاضي القدس من التعرض له.

كانت كراسي القش، صغيرة الحجم مكعبة الشكل ومن دون مسند للظهر، جزءاً لا يتجزأ من بيوت القهوة، وهي تظهر في كثير من الصور العائدة لهذه الفترة. ومن الأمثلة على ذلك "كراسي قش لزوم القهوة"، التي كانت ضمن تركة شعبان بن يوسف علي الفتيلي زبيدة القهوجي سنة ١٨٨٨ م.

تطورت بيوت القهوة مع مرور الزمن فأصبحت تَعرض لروادها المسرح الشعبي «الكركوز» والروايات الشعبية «الحكواتي»، حيث نقل فنانون شاميّون تلك الأنشطة إلى القدس، حسبما يُستدل من سجلات المحكمة، فكان ممَّن مارس تلك المهنة عبد النبي بن حسين الحكواتي الدمشقي سنة ١٦١٤ م؛ والحاج خليل الحكواتي سنة ١٦٩٢ م؛ ومحمد فرارة الحكواتي سنة ١٧٧٧ م؛ وأحمد الكركوزاتي الدمشقي، الذي مارس عمله منذ سنة١٧٩٩ م على الأقل، وشملت تركته بعد وفاته سنة ١٨٢٢ م «شبابة وكمنجة وعدة الكراكوز وصندوق العجب»؛ وجودت بن موسى الحلبي، الذي كان حكواتي مقهى عبد اللطيف في محلة باب حطة أواخر العهد العثماني.

يُعد محمود الحكواتي أشهر من مارسوا هذا الفن حتى أواسط عهد الاحتلال البريطاني، وهو من أهالي طرابس الشام، لكنه كان يقضي شهر رمضان في القدس، ويقسم كل ليلة إلى عدة فصول: فيبدأ بالتمثيل بعد الإفطار بساعة في مقهى خليل نجم، ثم في مقهى محلة باب حِطّة، ثم في مقهى الهوسبيس في محلة الواد ثم في أحد مقاهي محلة خان الزيت أو محلة النصارى، ثم في مقهى علي زحيمان الذي كان يخصصه للشعر والأدب، ثم في مقهى النابلسي خارج باب العمود حيث يستمر أداؤه حتى

حكواتي في مقهى في العهد العثماني

يُضرب مدفع السحور.[1] وقد وصفته هالة السكاكيني في مذكراتها، فقالت: «كان الكركوز من التسالي الشعبية في القدس حتى عشرينيات القرن العشرين، وكان يُقام في مقهى داخل باب العمود في الصف الشرقي. وكان شخص طرابلسي يأتي لإقامة عروضه كل رمضان. وهي تشمل شخصيتين فقط، يمثلهما الطرابلسي بصوتين مختلفين. وعندما كان شهر رمضان يأتي صيفاً، كان يقيم عروضه في الهواء الطلق على سطح المقهى. وإذا لاحظ الطرابلسي أن من بين الجمهور شخصيات مثقفة، كان يرفع من مستوى أدائه، حيث يتناول قضايا أدبية وسياسية واجتماعية. كانت مشاعر الاحتفال برمضان أشد ما تكون في البلدة القديمة، حيث يتم تزيين حتى أصغر الدكاكين، وكانت دكاكين الحلويات أكثرها جاذبية.»[2] لقد كانت عدة مقاهي تقدم عروضاً غنائية، كما انتشرت الموسيقى في المقاهي بكثرة، كمقهى زحيمان في باب العمود، وخصوصاً بعد ظهور أجهزة فونوغراف أديسون في القدس قبل الحرب العالمية الأولى، فقد كان مقهى صيام يبيع أسطوانات لمالكي تلك الأجهزة.

إعداد القهوة وتكلفتها

أُطلق على الدكان الذي كان يجري فيه إعداد القهوة وبيعها للرواد «بيت القهوة»، ثم اختصرت التسمية إلى «القهوة» فحسب، وما زالت العامة تستخدم هذه التسمية حتى يومنا هذا، بينما يُطلق عليه في اللغة المكتوبة «مقهى». أما صانع القهوة فقد أُطلق عليه قهوجي أو قهوتي أو مقهوي، ومؤخراً، أُطلق عليه «قهواتي».وكان إعداد القهوة يبدأ بطحنها في «الجرن الحجر المعد لدق البن» عند «مُحمِّص البن»، حيث أصبح التحميص مهنة بحد ذاتها وتمارَس في دكاكين مخصصة لها، وبعد نقل البن المُحمَّص إلى بيت القهوة يُغلى مع الماء في وعاء نحاسي ذي عروة عُرف بالماعون ثم بالبكرج، أو الدَلّة. وكانت القهوة تُشرب بفناجين «صينية» صغيرة الحجم، كالتي ما زالت تُستخدم حتى يومنا هذا، وكانت غالية الثمن حسبما تدل عدة حجج، ومنها تلك الصادرة سنة ١٦٥٤ م، وفيها «ادعى صالح بن إبراهيم الأعرج على سليم المقهوي، وقال إنه رهن عنده خمسة فناجين صينية على سبعة عشر غرشاً.» أما فنجان البيشة فهو فنجان دقيق الصنع تشرب به القهوة المُرّة.

أسعار القهوة

كانت أسعار القهوة باهظة في القرن السابع عشر الميلادي، إذ كان معدل سعر الرطل الواحد غرشين أسديين، وقد حدث أن «ادّعى حرز بن شهوان على سليم بن أبي بكر العزي القهوي سنة ١٦٥٢ م، وقال إنه باعه أربعة أرطال بُن قهوة بثمانية غروش». وبقيت أسعار القهوة عالية، وخصوصاً عند مقارنتها بأسعار مأكولات أخرى، فقد بلغت أسعار بعض البضائع سنة ١٦٨٧ م كالتالي: رطل الملح بارة واحدة، رطل السماق بارتين، رطل السماق المدقوق ثمانية بارات، رطل البن ١٠٨ بارات. ويعود سبب ارتفاع سعر البن إلى تكاليف استيراده الباهظة، فقد كان يُنقل من اليمن إلى ميناء السويس ثم القاهرة، وكان عُرضة للنهب في الطريق، وبعد عناء وصوله إلى القاهرة ودفع ضرائب باهظة، يُنقل إلى ميناء الإسكندرية ومنه إلى ميناء يافا. لكن مع ذلك، كان البُن في مقدمة البضائع الواردة إلى الميناء المذكور في الأعوام ١٨٧٤-١٨٨٢م، ويتلوه الأرز ثم السكر.[3]

استورد بعض تجار القدس البُن برّاً من مصر أو الحجاز مروراً بالخليل، كما فعل علي بن حسين التلمساني، فقد استورد بضاعة من مصر سنة ١٦٤٩م، وكلّف أحد الحمّالين «أن يحضر له إلى مدينة القدس

١ جوهرية، واصف، **القدس العثمانية في المذكرات الجوهرية**، تحرير وتقديم سليم تماري وعصام نصار، مؤسسة الدراسات المقدسية، القدس، ٢٠٠٣، ص ٨٠-٨١.

٢ Sakakini, Hala, **Jerusalem and I**, Jerusalem, 1987, p. 84..

٣ شولش، الكسندر، تحولات جذرية في فلسطين ١٨٦٥-١٨٨٢، ص ١٣١. ترجمة كامل العسلي، الجامعة الأردنية، عمان.

إبريق قهوة من مقتنيات الزاوية الأزبكية بالقدس.

الشريف أحماله الكائنة بمدينة سيدنا خليل الرحمن عليه السلام المستقرة عند الحاج أحمد المغربي، وقدرها خمسة أحمال: حمل قماش؛ وحمل عطر؛ وثلاثة أحمال بن قهوة.»

أقدم مقاهي القدس

ومن أقدم مقاهي القدس «بيت القهوة»، الذي تأسس في حمام علاء الدين البصير في عقبة القرمي قبل سنة١٥٧٨ م، وبعد ذلك تأسست عدة مقاهٍ قرب الحمام المذكور. ومن أقدم مقاهي محلة باب العمود بيت قهوة كبير أنشأه محمد باشا محافظ غزة، وباعته ابنته سنة ١٦٥١ م. وفي أواخر العهد العثماني تأسست أربع مقاهٍ في الصف الشرقي من سويقة باب العمود، وهي: مقهى عارف زعترة، ومقهى علي زحيمان، ومقهى خليل نجم، ومقهى صيام، واستمرّ العمل في مقهى صيام إلى أن أُغلق قبل بضعة أعوام. ومن مقاهي منطقة باب الخليل قهوة داود الأرمني، التي تمّت تصفيتها في سنة ١٨٥٩ م. وبعد انتشار العمران خارج السور أسست عدة مقاهٍ خارج باب الخليل، حيث كان الموقع يعج بالناس، وخصوصاً المسافرين إلى الخليل ويافا، ومنها:

- قهوة كبيرة كانت في عمارة بناها متصرف القدس مصطفى ظريف باشا قبل سنة ١٨٤٨ م بين سور المدينة والطريق العام.
- ومقهى "حنانيا الراهب ترجمان دير الروم بن اسكندر بن استاريو"، الذي كان في بناية يملكها خارج باب الخليل بين السور وطريق يافا سنة ١٨٩١.
- ومقهى النيكفورية الذي أسسه شخص يوناني في دارٍ تابعة للبطريركية الأرثوذكسية على جبل النيكفورية غربي جورة العناب.
- ومقهى المختار الذي أنشأه عيسى الطبة مختار الطائفة الأرثوذكسية على سطح مصرف كريديت ليوني خارج باب الخليل مباشرة، وأطلق عليه مقهى الصعاليك حيث كان ملتقى حزب الصعاليك، وقد هدم بعد الاحتلال البريطاني ببضعة أعوام فنُقل إلى داخل باب الخليل قرب فندق إمبريال.[٤]
- و«قهوة في عهدة يوسف بن ميخائيل الماروني» الجارية في وقف مسجد الصخرة والمسجد الأقصى سنة ١٦٧٢م.

٤ جوهرية، مصدر سابق، ص ٢٠٥؛ مجلة حوليات القدس، ع ٢: ٣٧-٣٩.

- وقهوة عاشور التي أنشئت في القدس قبل سنة ١٧٢٦م.
- وقهوة النشاشيبية بخط داود والجارية في وقف آل العسلي سنة ١٧٥٨م.
- ومقهى متري مستكلب، التي كانت تقع بين خان الزيت والدباغة المذكور سنة ١٩١٠م.
- وقهوة السرايا التي كان يرتادها مراجعو الدوائر الحكومية في السرايا.
- وقهوة محلة الواد مقابل الهوسبيس النمساوي.[٥]

وبحسب إحصاء أُجري سنة ١٨٧٧ م، فقد كان في القدس ٣١ مقهى، ٢٣ منها للمسلمين و٦ للمسيحيين واثنتان لليهود.[٦]

ومن المقاهي التي أنشئت خلال الاحتلال البريطاني: مقهى النابلسي في عمارة هندية خارج باب العمود؛ ومقهى جوهرية الذي تأسس في عمارة الروس في شارع يافا مقابل عمارة صنصور قرب مبنى المسكوبية سنة ١٩١٨ م؛ ومقهى النزهة قرب عمارة باسكال؛ ومقهى وبار كارنيك الأرمني مقابل دائرة حاكم القدس؛ وأسس عيسى السلفيتي مقهى بيكادللي في شارع ماملا، وكان ملتقى للنخبة العربية، وكان مقهى خليل السكاكيني المفضل.[٧]

وتقول هالة السكاكيني في مذكراتها: "خلال سنوات الحرب الثانية ساد استقرار نسبي في فلسطين، وانتعشت المقاهي ذات الحدائق حول القدس، فكان المقدسيون يمضون أوقاتهم بعد العصر في مقاهي إفرست وبانوراما وعايدة في بيت جالا؛ أما في رام الله فقد قامت الفنادق بذلك الدور، حتى إن حركة السير اكتظت بالسيارات، " وتتابع «وبالقرب من عين كارم اشتهر مقهى الشَّرَفَة، حيث كان على بقعة مرتفعة. وإلى الغرب منه كانت أراضي شكري ديب الشاسعة، التي حوّلتها إسرائيل إلى موقع الذاكرة وأطلقت عليها اسم جبل هيرتسل».[٨]

الشاي في القدس

أما منقوع الشاي فقد بدأ شربه في القدس أواخر القرن السابع عشر تقريباً، فقد ذكر الرحالة الألماني سيتزن، الذي زار القدس سنة ١٨٠٦م، أن مقاهي القدس كانت تُقدم الشاي ضمن ما تقدمه إلى روّادها.[٩] لكنني لم أعثر

إبريق شاي من مقتنيات الزاوية الأزبكية

على ذكر للشاي في سجلات المحكمة قبل سنة ١٨٣٦ م؛ أما بعد ذلك، فقد شملت تركة أبو السعود العطار الدجاني «علبة شاي، « ثم شملت تركة محمد آغا الخاربوطلي «فناجين شاي بصحونهم»سنة ١٨٤٧م.

أما بالنسبة إلى سعر الشاي فقد كان باهظاً جداً في العهد العثماني، ففي سنة ١٨٥٨ م بلغ سعر الرطل في القدس ١٤٤ قرشاً، بينما بلغ سعر رطل البُن ٢٤ قرشاً ورطل السكر ٢٢ قرشاً.[١٠] لكنه انخفض بعد سقوط فلسطين تحت الاحتلال البريطاني، الأمر الذي جعل من الشرق العربي سوقاً لصادراته الآسيوية، فانتشر شرب الشاي بصورة أوسع من القهوة.

٥ القدس العثمانية في المذكرات الجوهرية، ص ٤٥.

٦ شولش، ألكسندر، تحولات جذريةفي فلسطين، ترجمة كامل جميل العسلي، الجامعة الأردنية ، عمان، ص ١٥٤.

٧ Jerusalem and I, p. XII.

٨ **Jerusalem and I**, p. 91-92.

٩ مدينة القدس وجوارها في أواخر العهد العثماني، ص ٢٦٩.

١٠ تحولات جذرية، ص ١١٨-١٢١.